الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

الدكتور طه حسين في المغرب :

نشرت الصحف أخيراً أن الدكتور طه حسين بك سيسافر من فرنسا إلى إسبانيا تلبية لدعوة إلى إلقاء محاضرات بجامعاتها. وقد علمت أن الدكتور بعد أن يفرغ من مهمته في إسبانيا سيسافر منها إلى شمال إفريقية لإلقاء محاضرات ببعض المعاهد المغربية.

ولا شك أنك ستدهش لذلك كما دهشت أنا له ... فبلاد المغرب التي يحكمها الفرنسيون، والتي سيتجه إليها الدكتور طه حسين بطبيعة الحال — تعد مغلقة أمام الثقافة العربية الشرقية الحديثة، فلا يكاد يدخلها من مصر وما يليها من الأقطار العربية صحيفة ولا كتاب! فكيف يدخلها طه حسين ويحاضر فيها وهو في الصف الأول من منتجي هذه الثقافة؟ ولكن ما ذا أصنع وقد استقيت الخبر من مصدر عليم أثق به، كما يقول زملاؤنا الصحفيون، ولم يلقه إليّ إلقاء، بل أوضح كيف وصل إلى علمه إيضاحاً يبعث على التصديق.

ثم قرأت في العدد الأخير من مجلة «الإثنين» ما يلي:

«قال لنا أحد الحجاج المغاربة الذين مروا بمصر في طريقهم إلى الحجاز: إن الكتاب المصري أصبحت له سوق سوداء في شمال أفريقيا لندرة الحصول عليه، وإن هناك مجاعة ذهنية بسبب خلو المكتبات من آثار مصر الفكرية».

قرأت هذا فازدادت دهشتي من السماح للدكتور طه بدخول تلك البلاد، وخطر لي خاطر استبعدته، لأنه لا يمكن أن يساعد على التحدث عن الثقافة الفرنسية دون العربية!

إنها لمعجزة حقاً أن ينجح الدكتور طه حسين في «تهريب» الثقافة العربية إلى مناطق النفوذ الفرنسي في شمال إفريقية ...

كرسي شوقي أيضا :

أفضى الأستاذ مصطفى عامر بك وكيل جامعة فؤاد الأول إلى مجلة «البشير» بتصريح في مسألة كرسي شوقي، فقال: «يسر الجامعة ملء هذا الكرسي بدون توان، وإنما الذي لا بد منه هو اختيار الشخص الذي يتذوق الأدب الحديث عامة، المتشبع بشعر شوقي وروح شوقي وفلسفة شوقي خاصة، حتى يتمكن من ملء الكرسي وإعطاء شوقي حقه ومكانه من أدباء العصر الحديث. وإذا تيسر الحصول على هذا الشخص، فكلية الآداب لا تتردد في اختياره» إلى أن قال: «أولى بنا أن نترك الكرسي شاغراً حتى يتيسر لنا الشخص المطلوب». ولم يتعرض لنقطة اختيار الأستاذ من الجامعة أو من خارجها.

ويفهم من تصريحه نصاً أن الجامعة لم تقع عينها إلى الآن على شخص يصلح لهذه الأستاذية، ولكن هل يفهم منه — عن طريق الاستنتاج — أن الجامعة لا تجد في أساتذتها — وهم تحت عينها — من يصلح؟ أما غير أساتذتها من الأدباء، فهل بحثت عمن يصلح منهم؟ على أن هذا السؤال يجب أن يسبقه إقرار المبدأ وهو الاستعانة بأساتذة من خارج الجامعة.

والسؤال الأخير: هل صحيح أنه لا يوجد — في الجامعة أو في غيرها — من يتذوق الأدب الحديث ويلم بدقائق شوقي؟

وما كان يصح أن يتكون هذا السؤال لولا تلك المقدمات، فليس شوقي وشعره معضلة إلى هذا الحد!

اجتماع بجوار «كشك الموسيقى»:

شاء صديقي الأستاذ وديع فلسطين أن يفرّع الحديث في موضوع اختيار الجامعة أساتذتها، فأرسل الكلام في شعب هذا الموضوع، دائراً حول المحور الذي يظهر من قوله: «إن الحياة كثيراً ما تكون أقدر على إعداد المرء ثقافياً وعلمياً من الجامعة. وقد اعترف جورج برنارد شو بأنه لم يدخل جامعة ولا معهداً عالياً، وأنه كان خامل الذكر في دراسته الابتدائية».

وأذكر — لهذا — ما رأيته بعدد من جريدة «المؤيد» يقع تاريخه قبيل سنة ١٩٠٨، فقد كنت أتصفح أعدادها منذ سنوات بدار الكتب المصرية، فلمحت هذا التوقيع عباس

محمود العقاد » تحت أسطر تتضمن دعوة الراسبين فى الشهادة الابتدائية إلى الاجتماع بجوار « كشك الموسيقى » بحديقة الأزبكية ... ولعل التلميذ عباس محمود العقاد كان يريد بهذا الاجتماع أن يزعم زملاءه للمطالبة بعقد امتحان « ملحق » لهم ، وقد يكون الأمر غير ذلك . ولكن المعروف فى تاريخ الأستاذ الكبير أنه لم يستمر فى دراسة مدرسية بعد التعليم الابتدائى ، لحسن حظه ! فقد كسب بذلك وقتاً طويلا من عمره كان يضيع فى تعلم ما لا يريد ولا يفيد ، فاستغل وقته ووجه همه إلى ما أراد . وهو يعبر عن ذلك فى مقال بالعدد الأخير من مجلة الهلال بقوله : « ومما أحمد الله عليه أن أساتذتى جميعاً قد اختبرتهم بنفسى ، ولم يفرضهم على أحد يملك سلطة التعيين والفصل دون غيره ، لأنهم كانوا جميعاً مؤلفين مشهوداً لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف أقرأ منهم من أشاء وأعرض عمن أشاء ، وأطلبهم حين أريد وحيث أريد » .

وقد بلغ العقاد فى الأدب والفكر ما بلغ ، ولست أقول كما قال الأستاذ وديع إنه يكفى أن يقدم كتاباً من كتبه — بغير اختيار — إلى الجامعة لينال عليه درجة الدكتوراه . ولا أذهب إلى ما ذهب إليه من المطالبة بالدكتوراه لرواد الحركة الفكرية الحديثة فى مصر . فالدكتوراه لا تزيدهم شيئاً ، إلا أن يكون المطلوب مساواتهم بعشرات الدكاترة من الخريجين العاديين .

إنما تمنح الشهادة أو الدرجة الجامعية لتدل على قيمة صاحبها العلمية أو الفنية ، فإذا ما ظهرت هذه القيمة وأصبحت معروفة بين الناس فما الحاجة إلى الدليل عليها ؟

مؤسسة الثقافة الشعبية :

تلقينا من مؤسسة الثقافة الشعبية التى كان اسمها الجامعة الشعبية ، بياناً ضمنته خلاصة ما قامت به منذ إنشائها سنة ١٩٤٦ ، جاء فيه أن من أغراض المؤسسة « تنظيم دراسات عقلية وفنية لتكوين الشخصية ، وترقية الملكات ، ورفع المستوى الثقافى ، والعمل على نشر الثقافة العامة بين طبقات الشعب على أساس من الرغبة الشخصية دون اشتراط مؤهلات معينة » .

ويبدو أن الكبار أحسن من الصغار حظاً بهذه المؤسسة ، فى هذا الوقت الذى يواجه فيه الآباء مشقات إلحاق أبنائهم بالمدارس ، الناجمة من عدم وجود محل ، أو عدم توافر الشروط ، أو العجز عن أداء « المصروفات » وما يصحب ذلك فى الغالب من الوساطات والشفاعات — فى هذا الوقت يستطيع الكبير الذى لا تقل سنه عن ١٦ سنة ، والذى أتقن القراءة والكتابة ، وقد حرم من التزود بما يميل إليه من ألوان الثقافة وأنواع الفنون أن يستدرك ما فاته ويحقق رغباته فى وقت فراغه ، لا يتكلف غير رسم زهيد مائتى مليم فى السنة .

وبالمؤسسة عشر شعب ، نذكر منها شعبة الدراسات الأدبية ، وشعبة الدراسات الاجتماعية ، وشعبة الفنون الجميلة وتشمل الرسم والتصوير والزخرفة والموسيقى والأغانى والتمثيل ، وقد أنشىء للعام القادم شعبة اللغات الحية . وللمؤسسة فروع فى الأقاليم يشمل كل فرع منها جميع الشعب ، وقد بلغ عدد الطلاب فى العام الماضى بالقاهرة والأقاليم ١٠٥٠٤ منهم ٤٨٢٨ سيدات وآنسات أكثرهن فى شعب الثقافة النسوية .

نظرة فى منهج الشعبة الأدبية :

وفى زيارتى المركز العام للمؤسسة أطلعنى سكرتيرها الأستاذ محمود الغزاوى على منهج الشعبة الأدبية ، وأذكر أولا ما جاء فى آخر هذا المنهج من أن هدفها هو « أن تجعل من طالبها إنساناً متذوقاً للجمال الأدبى ، وقارئاً يقرأ عن فطنة ويدرك عن وعى ، وكاتباً يحسن التعبير عما فى نفسه ، ومتحدثاً يزن الكلام إذا نطق ، وأن تقضى على العامية اللغوية والفكرية وأن تحبب الشعب فى القراءة المجدية التى هى أهم وسائل المعرفة ، وأن تساهم فى الإعلاء من قدر الأدب الرفيع ومحاربة الأدب الهزيل الرخيص » .

وهذا كلام طيب ، وهو الهدف الذى يجب أن يرمى إليه . ولكن هل المنهج المرسوم يؤدى إليه ؟ يحتوى المنهج إجمالا على : تعريف وتحليل للكتاب العربى ، تراجم وتحليل للشخصيات الأدبية ، دراسة علمية للأسلوب مع التفرقة بين الأساليب المختلفة ، تحليل وعرض لنصوص من جيد النثر على أن تكون تطبيقاً على ما فى الدروس العلمية .

وأنا أعتقد أن دراسة هذه الموضوعات لا تسير فى الطريق إلى تحقيق ذلك الهدف ، بل إنها تصد الناشىء فى الأدب عنه ، وكان يعد الموضوع الأخير ، وهو عرض النصوص ، من الاتجاه الصحيح ، لولا ما أفسده من أن المقصود به أن يكون تطبيقاً على الدروس الملقية .

إن هذه الموضوعات تدرس فى المدارس الثانوية وما يماثلها ، وتسخر أذهان الطلاب فى حفظ التعريفات وإحصاء الخصائص والفروق والصفات ، وليس وراء شىء من ذلك أى طائل ، فمثلا يحفظ الطالب فى السنة الثانية سبب تأليف أبى الفرج كتاب الأغانى ويحفظ وصف الطريقة التى اتبعها فى تأليفه وغير ذلك ، ولكن ليس فى ذهنه فكرة واضحة عن الكتاب ، ولو رآه ما عرف أنه المقصود بذلك الدرس الذى حفظه ...

يخيل إلى أن الذين يضعون هذه المناهج إنما يريدون أن يدلوا على علو كعبهم فى فنون الدراسات الأدبية ، كما تدل على علو كعبهم أيضاً تلك الكتب المدرسية التى يؤلفونها وفق هذه المناهج ، ولكنك إذا نظرت إلى هذا كله من جهة أخرى هى تعريفهم أنفسهم للبلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وتأملت الفرق الكبير بين حال الطلبة الناشئين وبين أسلوب هذه المؤلفات ومستوى تلك المناهج ، علمت ما فى عملهم هذا من مجانبة للبلاغة ودلالة على ضد « علو كعبهم » فيها ..

كنت وما زلت أود أن تخرج المؤسسة الشعبية على تلك المناهج الرسمية الجامدة ، فتقدم لطلابها الأدب نفسه خالصاً من تلك الدراسات ، تعرض نماذج سهلة منه وتيسر لهم قراءة الكتب الأدبية من أفهامهم ، مع شرح من الأساتذة ، وتحليل طفيف يقصد منه إلى الإساغة والتذوق ، لا إلى معرفة الخصائص والاصطلاحات العلمية والبحث عن أسباب الصعود والهبوط فى (بورصة) الأدب !

إن الذين يطلبون الأدب فى مؤسسة الثقافة الشعبية ينبغى أن يكون أهم ما يقدم لهم رحيق الآداب الصفى ، لأنه هو الذى يستجيب لميولهم التى دفعتهم إلى طلبه ، وهو الذى يلائم شهيتهم البادئة . وهم بعد أحرار فى إقبالهم وإعراضهم ، لا تملك المؤسسة من أمرهم كما تملك المدارس من أمر تلاميذها . . وأخشى إن دأبت على هذا النهج أن تضطر إلى إلغاء الشعبة الأدبية بعد أن بعد أن تدل « التجربة » على عدم نجاح الدراسة فيها ..

عزيزتى السيدة بريزة مصابنى :

قرأت فى إحدى الصحف أنك تفكرين فى إحضار فرقة « باليه » راقصة من باريس للعمل فى مسرح (كازينو أوبرا) فى الشتاء القادم . فسررت لهذا الخبر ، ولا يسعنى إلا أن أشكرك بالنيابة عن الحكومة المصرية وعن دار الأوبرا الملكية لأن استقدامك فرقة الباليه من شأنه أن يعفى الدولة من الجهود والأموال التى تبذلها لاستقدام هذه الفرقة وأمثالها ، من شأن عملك هذا يا سيدتى أن يعفى مدير الأوبرا من الترحال والأسفار والتنقل بين البلدان الأوربية للبحث عن هذه الفرق والتعاقد معها ، ومن شأن هذا العمل الجليل أيضاً أن يعفى خزانة الأمة المسكينة من تلك الأموال التى تدفعها إلى تلك الفرق والتى ينفقها المدير فى رحلاته .

ومما يضاعف الشكر لك « يا ست بديعة » أن تكونى قد أردت معاونة الدولة فى أعبائها الكثيرة المرهقة ، إذ رأيتها تعمل جاهدة على استكمال ما ينقص هذا الشعب المسكين فتجلب الفرق الراقصة لعلاج أمراضه ومحاربة أعدائه الثلاثة المشهورة المعروفة بالفقر والجهل والمرض !

ورأيت من جهة ثانية أن الدولة مرهقة بأعباء أخرى جدية . . . كتدبير الخطط السياسية الخارجية وإيفاد الوفود إلى الهيئات الدولية ، فأردت — مشكورة — أن تقولى لها : خل عنك عبء الترفيه عن ذوى الهموم المترفة ! وتفرغى لغيره مما يليق بك ..

وسواء أصح ذلك الخبر أم كان من خيال زميل بارع ، فهو على كل حال يلقى ضوءاً على جهة الاختصاص فيتبين « بارى القوس » ليعطاها . . . وهو أيضاً فرصة طيبة لأكتب لك هذا وأحييك تحية فائقة ..

عباس خضر